أزمة الخطاب الديني المسيحيّ القديم والجديد:
رفضٌ صريحٌ لعدم تمكين المرأة في الكنيسة الأرثوذكسيّة

ماريّا قباره

تشهد الدّراسات الكتّابية واللاهوتيّة في السّنوات الأخيرة حركة كبيرة تتمركز حول موضوع المرأة في الكّتاب المقدّس، وانعكاساته على دورها ومكانتها في كنيسة اليوم. والرأي السّائد كنسياً وكتابياً يُفيد بأنّ يسوع قد حرّر المرأة من العادات والتقاليد التي كانت تحدّ دورها بالأعمال المنزلية والعائليّة، في بيئة يهودية لا ترحمها.

فإذا كانت المرأة، في الكتاب المقدَّس، ومن منظار اللاهوت المسيحيّ، مخلوقة على صورة الله ومثاله، كما جاء في مستهلّ سفر التكوين «فخلق الله الإنسان على صورته، على صورة الله خلقه، ذكرًا وأنثى خلقهم» (27:1)، فهذا يعني أنَّ المرأة كالرَّجل، إنسانٌ تامّ على صورةِ الله، وفي صورة الله لا وجود لرتبٍ ودرجات ولا فضل لإنسان على آخر، إذ إنَّ الكلّ مدعوّ إلى الخلاص، يناله كلّ إنسان، سواء أكان رجلاً أم امرأة، بمقدار ما يجتهد في تنمية مواهبه المُعطاة وإذكائها وإكثار وزناته.

انطلاقًا ممَّا تقدَّم، تتبدَّى صورة المرأة ورؤيتها أمام الله مساوية للرجل، مخلوقة على صورة الله. فالجِنسان لهما القيمة الأنثروبولوجيّة ذاتها. المرأة تملك، أسوة بالرجل، امتياز مخلوقيّتها على صورة الله، وهي تتساوى معه بالفضيلة والأمانة والثواب وفي النّضالات المجتمعيّة.

غيرَ أنَّ المتعمّق في قراءة آيات بولس الرسول والكثير من النّصوص الآبائيّة الّتي تناولت المرأة يتوقّف مطوّلاً عِند التفاوت والتناقض في النّظرة إليها في كتاباتهم هذه. فمُنهم من أسقط عليها صورًا سلبيّة، في حين بعضهم الآخر تحدَّث عنها بإيجابيّة. فها هو ترتوليانوس، في كتابه «تبرّج النساء»، يحمل بقسوة على المرأة ويُلصق بها أسوأ النّعوت، إذ يقول بأنَّ المرأة: «باب الشيطان، وأوّل من أكلَ من الشجرة المُحرّمة، وهي الّتي أغوت الرّجل الّذي لم يستطع الشيطان نفسه غوايته على نحوٍ مباشر، كما أنَّها هي الّتي حطمت بسهولة صورة الله الّتي هي الرجل».

في حين يقول القدّيس غريغوريوس النّيصصيّ: «إنَّ المرأة، بالتساوي مع الرجل، هي على صورة الله. الجِنسان لهما القيمة ذاتها. الفضائل متساوية بينهما». ويقول القدّيس باسيليوس الكبير: «إنَّ الرجل والمرأة متساويان، آباء الكنيسة لا يفرّقون بين الرجل والمرأة في الخلق على صورة الله. ويكرّمون طبيعتيهما بالتساوي، ففضائلهما متساوية، ومكافأتهما متعادلة، وكذلك دينونتهما».

فإذا كان الأمر كذلك، كيف نفسّر هذا الاختلاف في النّظرة إلى المرأة ودورها عند الآباء والكتّاب الكنسيّون عبر التاريخ؟ وما هي علاقة هذه الصّور بهيكليّات المجتمع الذكوريّ وذهنيّته والحضارات واللّغات الّتي نَمت عبرها كتاباتهم، ما طمس حدّة الإنجيل وجدّته؟ وهل بالإمكان فصل المُعطى الحضاريّ والثقافيّ والاجتماعيّ عن المُعطى الإلهيّ في ما يتعلّق بصورة المرأة في كتابات الآباء؟

بمعنى آخر، لماذا ناقضَ بعض الآباء والكتّاب المسيحيون روحيّة الإنجيل، ناعتين المرأة بأنَّها دون الرجل، وبأنَّها مصدر كلِّ شرّ؟ ولماذا اجتزأوا آيات من رسائل القدّيس بولس تحجّم المرأة وتقزّم دورها في الكنيسة؟ ولماذا حرَّم عليها بعضهم الآخر وظائف كالتعليم والوعظ داخل الكنيسة، علمًا أنَّ غريغوريوس النيصصيّ يقول عن أخته مكرينا إنَّها معلّمته ومعلّمة أخيهما باسيليوس؟ ولماذا أوكلت هذه الوظائف والواجبات إلى الرجل فقط، ما رسّخ سلطته وجعله يحكم على النساء بالدونيّة والاستلاب؟ علمًا أنَّه في الكتاب المقدَّس «ليس يهوديّ

ولا يونانـيّ. ليـس عبـد ولا حـرّ، ليـس ذكـر وأنثـى لأنّكـم جميعًـا واحـد فـي المسـيح يسـوع» (غلاطيـة 28:3)، كمـا علّـم بولـس الرسـول.

دونية المرأة في كتابات الآباء

لقـد حـاول معلمـوّ الكنيسـة وكتّابهـا علـى مـرّ التاريـخ مـن تبخيـس دور المـرأة وتدجينهـا والسّـيطرة عليهـا عبـر تبنـي وتصديـر نصـوص وقوانيـن معينـة مـن شـأنها الحـدّ مـن مكانتهـا ودورهـا فـي الجماعـة الكنسـيّة. وخاصّـة تلـك المتعلقـة بآيـات بولـس الرسـول ورسـالته إلـى تيموثـاوس الأولـى الّتـي جـاء فيهـا: «لتتعلـم المـرأة بسـكوت فـي كلّ خضـوع» (11:2) هـذه المقولـة لبولـس الرسـول كانـت إجابـة مسـتمرة لمنـع المـرأة مـن الوصـول إلـى اعتـلاء منصباً كنسـياً أو دوراً قياديـاً عبـر التاريـخ الكنسـيّ. واعتمـدت هـذه الآيـة كنـصّ صريـح فـي مسـألة منـع المـرأة مـن تولـي المناصـب التعليميّـة واللاهوتيّـة بالرغـم مـن أنّهـا ليسـت مـن روح تعليـم يسـوع المسـيح ولا فكـره.

وإن عُدنـا إلـى تطـوّر النّظـام البطريركـيّ الـذي بـدأ منـذ ألفـيّ عـام ونيّـف قبـل الميـلاد سـنجد أنّـه بُنـي علـى أسـاس أنّ الرجـال والنسـاء خُلقـوا علـى نحـو مختلـف ولهـدف مختلـف. فالرجـال لهـم ذهـنٌ متقّـد وذكاء يسـتطيعون بهمـا القيـادة والتـرأس. بينمـا النّسـاء هـنّ أقـل فـي المسـتوى الفكـري، وبالتالـي عليهـنّ أن تكـنّ خاضعـات ومتكلّات علـى الرجـال. إلاّ أنّ هـذه الأفـكار الذكوريـة، وعلـى مـرّ التاريـخ المسـيحيّ، اعتنقـت لتكـون بمثابـة أوامـر إلهيـة، وأصبحـت كتعليـم مقـدّس ضمـن المنظومـة التعليميـة التربويـة علـى جميـع المسـتويات « لأنّ آدم جُبـل أولاً ثـم حـواء، وآدم لـم يغـوَ، لكـنّ المـرأة أغويـت فحصلـت فـي التعـدّي» (1تيموثـاوس2:13 – 14)

إنّ روايـة الخلـق فـي سـفر التكويـن لـم تسـرد تفاصيـل وجـود الحيـاة فـي جنّـة عـدنٍ بحسـب الروايـة الكتابيّـة، أمّـا الرمزيـة الّتـي اتخذتهـا فيمـا بعـد كانـت أساسـاً قويـاً لشـرعنة وقوننـة واضحـة لـكلّ التفسـيرات الآبائيـة علـى أسـاس وفهـم ذكـوريّ ممّـا عـزز التّمييـز بيـن الجنسـين لصالـح الرجـل.

تجـدر الإشـارة فـي هـذا السّـياق إلـى أنّ معظـم معلمـو الكنيسـة وكتّابهـا لـم يطرحـوا مسـألة المـرأة بصـورة مسـتقلة ومباشـرة، بـل طرحوهـا فـي أطـرٍ وظـروف إشـكاليةٍ تناولـت موضـوع البتوليـة أو الـزواج أو المـوت. حتّـى أنّ الكثيريـن منهـم غالبـاً مـا عبّـروا بقـوّة عـن آرائهـم السّـلبية ضدّهـا، لكـن سـرعان مـا طـورّوا نظرتهـم الإنسـانيّة إليهـا مناقضيـن بذلـك آرائهـم السّـابقة فـي سـنوات معـدودة.

فالذّهبـيّ الفـمّ، علـى سـبيل المثـال لا الحصـر، الّـذي كان يُشـدّد فـي عظاتـه الّتـي تعـود إلـى بدايـات حياتـه الرهبانيّـة علـى سـلبيات المـرأة، وهـذا نـراه بوضـوح فـي إحـدى نصائحـه لصديقـه ثيـوذوروس الّـذي كان معجبـاً بامـرأة جميلـة وأراد تـرك طريـق الرهبنـة ليتـزوّج منهـا، فيقـول فـي مقـال لـه حـول البتوليـة: « لـو تأملّـت يـا ثيـودوروس مـا تخفيـه هـذه العيـون الجميلـة وهـذا الأنـف القويـم، والفـمّ المرسـوم، والخـدود الغضّـة، لتأكـدّت أنّ هـذا الجسـم الممشـوق ليـس سـوى قبـر أبيـض، أعضـاؤه مليئـة بقـاذورات لا حـدَّ لهـا». وبخلاصـة حديثـه يقـول: «مـن يخطـئ يكـون قـد سـقط فـي الضّعـف البشـريّ، ومـن يسـتمر فـي هـذا الخطـأ تبطـل إنسـانيته ليصيـر شـيطانًا».

يقـول الذّهبـي الفـم فـي عظـة ثانيـة مفسـراً الصّـورة الإلهيـة فـي الكتـاب المقـدس، وفيهـا يـرى المـرأة كائنـاً أدنـى مـن الرجـل، وليسـت صـورة اللـه مثلـه، بـل صـورة ومجـداً للرجـل، يقـول: «مـن يعتقـد أنَّ التعبيـر «صـورة» يجـب أن يُفهـم بمعنـاه الواقعـي، نـردّ عليـه ونقـول: فـي هـذه الحالـة، يجـب ألاَّ نُسـمّي الرجـل فقـط صـورة. فالمـرأة، أيضًـا، يجـب أن تُسـمّى صـورة، لأنَّ لكليهمـا الشـكل نفسـه. لكـنَّ هـذا أمـر غيـر معقـول. فاسـمعوا مـا يقولـه بولـس: «علـى الرجـل ألاَّ يعتمـر لأنَّـه صـورة اللـه ومجـده (...) أمَّـا المـرأة فهـي

مجد الرجل» (1كورنثوس 7:11). هو يسود وهي تخضع كما قال لها الربّ منذ البدء: «وإليه تنقاد أشواقك وهو يسودك» (تكوين 16:3). ولأنَّ الكلمة الأولى تقول إنَّ الرجل يشارك في صورة الله لا في شكله، يمارس الرجل الهيمنة الشّاملة بينما تكون المرأة خاضعة. ولهذا يُعلن بولس أنَّ الرجل هو صورة الله ومجده، بينما المرأة هي مجد الرجل».

يُظهر لنا هذا المقطع بوضوح أنَّ الذهبيّ الفم لا يعتبر المرأة صورة الله مثل الرجل، لا لأنَّها لا تستطيع ممارسة السّلطة وحسب، بل لأنَّ جسدها يختلف عن جسد الرجل، حتّى وإن كان شكلها من شكله. وبما أنَّ جسدها برأيه مُغرٍ، اعتمد الذهبيّ الفم على هذه الفكرة ليُبرّر عدم أهليّة النّساء للكهنوت، لأنَّ شكلهنَّ بنظر الرجل بعامّة ملفت. فها هو يقول في مقالته حول الكهنوت في كتاب منسوب له «في الكهنوت: «حين تقتضي المسألة رئاسة الكنيسة وهداية النفوس، وبما أنَّ رجالاً كثيرين ينسحبون أمام واقع هذه المهمّة العظيمة، فإنَّ المرأة غير مؤهلة لها بسبب جسدها (...). فأنا لا أبالغ حين أقول إنَّ الفارق بين الراعي ورعيته هو كالفارق بين البهائم والأشخاص العاقلين»، ويضيف في موضع آخر مقولته الشهيرة «لا أستطيع أن أجد أيّ شيء جيد في المرأة، فمن بين وحوش البريّة المفترسة يستحيل عليكَ أن تجد حيوانًا أشدّ أذى من المرأة».

هذه المقاطع القاسية بحقِّ المرأة والتي يتفوّه بها راعٍ بارز وقمر من أقمار الكنيسة الأرثوذكسية العِظام، تتناقض مع تعاليم يسوع وصورة المرأة في الكتاب المقدَّس، كما أنَّها تتناقض مع واقعٍ راعوي عاشه، إذ أشرف هو نفسه على إنشاء بيتٍ خاصّ بالعذارى والأرامل من بنات الأشراف في القسطنطينية، وجعلَ نفسه أسقفًا لهنَّ وأبًا.

فقد ارتبط اسم يوحنّا الذهبيّ الفم بالشمَّاسة أولمبياس، التي أعجب بشخصها وإيمانها وحبّها لله وسخائها في العطاء مع نسكها واتضاعها. فخصَّها باهتمامه، واستغلَّ طاقاتها في الخدمة، حتى بات اهتمامه بها معروفًا في القسطنطينيّة كلّها. لذلك عندما نُفي انصبت عليها اضطهادات كثيرة، لكنَّه تلّقى منها رسائل تعزية اعتبرت مصدرًا مهمًا لتاريخ حياته في محنته الأخيرة، هي التي قد قالَ فيها القدّيس غريغوريوس النزينزي: «أولمبياس مجد الأرامل في الكنيسة الشرقيّة». وقال فيها الأسقف المؤرخ بالاديوس: «امرأة عجيبة، تشبه إناءًا ثمينًا مملوءًا بالروح القدس».

فجاءت رسائل الذهبيّ الفم إلى الشمَّاسة أولمبياس لتكشف لنا، في تناقض واضح، رؤية مغايرة عمَّا سبق ورسمه هذا القدّيس للمرأة. فهي عنده صديقة صدوقة، كنَّ لها أشدّ الإعجاب. فأولمبياس سيطرت بإيمانها وفضائلها وخدمتها على قلوب آباء الكنيسة، وأصبحت رسائلها عزاءً لأسقفها أيام محنته، والذي لم يتجرأ أقرب الرجال إليه، من مراسلته ومن تخفيف وطأة حزنه. وقد كتب لها في رسائله الجوابيّة ليس فقط عزاءً، بل شاطرها آلامه وأفكاره أيضًا.

ولعلَّنا نستطيع أن نقول أنَّ خبرته مع أولمبياس غيَّرت نظرته إلى المرأة. فهو كرّس حياته للعلم وللرهبنة ولم يتح له معرفة المرأة عن كَثب. جلَّ ما عرفه كان مرتبطًا بواقعٍ مجتمعيّ رسمَ للمرأة صورة سلبيّة. غير أنَّ صداقته ومعرفته بأولمبياس فتحتا أمامه إمكان رسم صورة إيجابيّة صحيحة عن المرأة: هي كما الرجل قادرة على عيش تعاليم المسيح، وعلى اقتناء الفضائل وعلى تعزيّة المأسورين وعلى فتح قلبها لمحبّة الفقراء. كلماتها المعزيّة وسيرتها الفاضلة ووقوفها في وجه الامبراطور جعلت الكثيرين يمدحونها قائلين: «إنَّ الامبراطورة أفذوكسيا تسمع آيات الإكرام والتبجيل من كلِّ بقاع العالم، أمَّا أولمبياس فتسمع تنهدات العالم كلّه ودعواته».

هذه السّطور القليلة، لهيَ عندنا كافية لتُخبرنا عن

الصّورة التي رأى فيها الذهبيّ الفمّ المرأة السّائرة بحسب الإيمان. مما يعني أنَّ بعض عظاته والتي أشرنا إليها أعلاه والّتي تناولت المرأة من وجهة نظر سلبيّة كانت وليدة ظروف معينة لأنّه سرعان ما تجاوز هذه النّظرة السّلبية بصداقته ومعرفته بالشّماسة أولمبياس. فالنّقد ليس بعرفنا نقدًا تناول كيان وإنسانية المرأة، بل سلوكًا مرفوضًا عند الجنسين. وإلاَّ كيف نفسّر أنَّ هذا الرجل البارّ، الذي اعتبر في عصره رئيسًا على نصف العالم المسيحيّ، والّذي على الرغم من منفاه والحزن الذي كان فيه، كتب سبع عشرة رسالة إلى امرأة؟ إنَّ يوحنا أطلق على أولمبياس في كلِّ رسائله عبارة «أختاه»، توحي هذه العبارة بالمساواة، وقد درج الرجال على استخدامها إذا ما شاؤوا أن يرّفعوا من قيمة المرأة وجعلها ندًّا ومعادلاً لهم.

رهبنة النّساء بزيّ الرجال

إشكاليّة سلبية كبرى صنعتها أيضاً كتابات ونصوص الآباء والكتّاب المسيحيون وآرائهم عن المرأة الّتي تنافت في حدّ كبير منها عن روحية الانجيل ودعوة يسوع المسيح للمساواة والكرامة والتكامل بين الرجل والمرأة. أمام كلّ الافكار الدونيّة العدائية التي وصلت لدركٍ يسحق كلّ من تُفكّر بشكلٍ مختلف، وكلّ من تحترم وتكرّم طبيعتها الأنثوية.

في القرن الرابع عاشت القدّيسة سنغليتيكي متوحدّة بجوار الاسكندرية. وتعتبر سيرتها واحدة من أقدم وثائق سير قديسيّ الرهبنة الشرقية. كانت الراهبة سنغليتيكي واحدة من أمهات البرية القلائل التي وصلت سيرة حياتها وأسلوب حياة ديرها في الرهبنة النسائية. كان لها تلميذات كثيرات في الدّير، والّتي أخذت في تعليمهنّ وتدريبهنّ عن التخلّي عن طبيعتهنّ الأنثويّة الّتي كانت تعتبرها كما الكثيرون من الآباء القدّيسون أنّها مصدر كلّ شرّ- من الجدير ذِكره أنّ هذا الاسلوب الرهباني النّسائي ما زال متبعاً لليوم في كثير من أديرتنا الشّرقية عامة والأنطاكيّة خاصة.

إنّ سيرة حياة القدّيسة سنغليتيكي وأقوالها نقلها القدّيس أثناسيوس الكبير الّذي كان بطريرك الاسكندرية آنذاك. لم تدافع الأمّ سنغليتيكي عن صورة المرأة الّتي فيها أمام أترابها من رهبان البرية وذكورية مجتمعها الّذي عاشت فيه، بل أخذت تتنكّر من طبيعتها بقولها: «أنا صورة امرأة بالطبيعة لكنّي رجل في جهادي وأفكاري».

وقد روّجت الكثير من الراهبات والنّساء المعروفات والمؤثرات في ذلك الوقت بأنّ من تتنكّر لطبيعتها الأنثوية فهي تسير في اتجاه الإيمان الصحيح مبتعدة عن الخطيئة الّتي تكمن في جسد المرأة. وما الرهبنة الحقيقية إلاّ للرجال!

وضِمن هذا السّياق آثرت بعض النّساء الترهبن بزيّ الرجال كالقدّيسة إفروسيني وثيوذورا ومارينا وغيرهنّ. فثيوذورا الّتي خانت زوجها مع آخر شعرت بالإثم والذنبِ تجاهه، فحاولت الانتحار تكفيراً عن إثمها، إلاّ أنّها عادت لتّتخلى عن أنوثتها فشوّهت وجهها وقصّت شعرها ولبست زيّ الرجال وذهبت إلى أديرة الرهبان لتقضي حياتها كراهبٍ فيها.

أمّا إفروسيني الّتي عندما توفيت والدتها هربت من والدها الّذي كان من أشراف مدينة الاسكندرية لتتنكّر بزيّ الرجال وتدخل ديراً للرهبان مدعية أنها خصيّ وأن اسمها سماراجد. حيث أمضيت في الدير 38 سنة في نسكٍ صارم اشتد عليها المرض وماتت حيث عُرف سرّها بعد موتها.

أمّا الراهبة مارينا الّتي دخلت ديراً للرجال باسم مارين. اتهمتها إمرأة بأنّها أقامت علاقة معها وأنجبت منها ولداً، إلاّ أنّ مارينا لم تدافع عن نفسها بل آثرت استكمال دور الرجل الّذي لبسته، فطُردت من الدير لتربيّ الطّفل. ثمّ عادت ولم يعرف أحد سرّها وحقيقة أمرها إلاّ بعد موتها.

إنّ كتابات بعض الآباء والكتّاب المسيحيون رسخت بشكلٍ كبيرٍ دونية المرأة عبر لومها المستمر، وتحميلها مسؤولية الخطيئة الأولى، فكانوا يلقبونها ببوابة الشّيطان، وينادوا بأن تحتقر المرأة نفسها، وتلبس الملابس القبيحة وتجاهد لتهمل من مظهرها وتبكي لتكفر عن عصيان حواء قديماً.

أكلت حواء، كما أكل آدم من شجرة معرفة الخير والشرّ المغرية، والّتي تتوسط عدنٍ لفترة من الزمان بحسب ما تروي رواية الخلق. أخطأ الاثنان أمام الله وسقطا معاً. لكنَّ التّاريخ البشريّ غفر لآدم وجعله ضحيّة إغواء حوّاء، وسلطوا على طبيعتها الأنثوية كلّ الاتهامات الّتي من شأنها تخضع قهراً لسلطان آدم- الرجل.

توظيف النّجاسة وحيضٌ يمنع النّساء من دخول الهيكل

في أثر اتباع الآراء الذكورية الّتي نادت بدونيّة المرأة، وتبدّل الظروف التاريخية بعد القرن الخامس في الشرق والّتي زادت المجتمع البطريركي أكثر حضوراً. وتأثير اليهودية في العبادة والحياة والقوانين المسيحيّة الذي زادَ بسبب من تطوّر العلاقات بين الكنيسة والدولة في الامبراطورية البيزنطيّة وتشكيل القانون الكنسيّ وتشريعه، بحيث عادت الكنيسة إلى التشريع اليهوديّ. وهذا ما يلاحظه اللاهوتي الأرثوذكسيّ إفدوكيموف بقوله: «إنَّ ظاهرة خطيرة جدًا دخلت تاريخ المسيحيّة، واخترق التأثيرُ اليهوديّ روحَ القوانين المسيحيّة». ويتضّح هذا عبر القانون 44 من مجمع اللاذقية 364م. «لا يجوز للنساء الدخول إلى مذبح التقدمة (الهيكل)»، والقانون 69 من مجمع ترولو «حيث مُنعت المرأة من دخول الهيكل بسبب الصفات التي تملكها طبيعتها».

يمكننا القول، أيضاً، أنّ بولس الرسول ورَّث تعاليمه حول حرمان المرأة من التّعليم ومن إعتلاء المناصب الدينية لكلّ العالم المسيحي، وهذا ما نجده في القوانين والنصوص الآبائية والتشريعية. فنجد الكنائس قد استندت على تعاليم بولس الرسول المتشددة بشأن المرأة من جهة، وعلى صياغة معظم طقوسها بناء على قوانين التلمود اليهودية القديمة من جهة أخرى.

إنّ خضوع المرأة للرجل في المجتمع اليهودي القديم كان مفروضاً بصرامة على المرأة. ومن البديهي القول إنّ الرجل المنتمي إلى اليهودية، كان يشكر الله ثلاث مرات في اليوم لكونه ولد يهودياً لا أممياً، رجلاً لا امرأة، حراً لا عبداً. أمّا كتاب الصلاة اليهوديّ، فقد زاد على ذلك صلاة للمرأة تقبل فيها وضعها إذ تقول: «أحمدك أيّها الإله الأزلي ربّ العالم الّذي صنعتني حسب مشيئتك».
هذا التقليد الغابر اعتنقته الكنائس المسيحية ورسخته في ذهن وعقول النّساء لقرون طويلة، واستخدمت فكرة النّجاسة بشكلها العام لحرمانها من حقوق كثيرة.
إلاّ أنّه ومع مرور الوقت ظهرت أصوات مستنيرة من أوساط كنسية تقول إنّ لا نجاسة إلاّ بالخطيئة. وما مفهوميّ الطهارة والنجاسة في ما يتعلّق بالفيزيولوجيا إلاّ مفهومَين بائدَين. ويسوع المسيح نفسه تجاوزهما. فالمساواة تامّة بين الرجل والمرأة (غلاطية 3: 28)، لا بل كثيرًا ما تكون النساء هنَّ العامود الأكبر في حفظ البيت وليس الرجل.

فالمجمع الأنطاكيّ المقدس، على سبيل المثال، في عام 2007 كان سباقاً بإقرار: «إلغاء كلّ ما يوحي بأنّ المرأة حاملة للنجاسة، من حيث دخولها إلى الكنيسة وقبولها في المناولة المقدسة».

لكن في الحقيقة مشكلة المرأة المسيحية لا تتلخص فقط في فكرة كونها نجسة بطبيعتها فترة الحيض، ولكن لانّ هذه الفكرة بني عليها حرمانها من تولي أي منصب دينيّ وسلبها استحقاق دخول الهيكل أو قراءة الإنجيل في الخدم الليتورجية والوعظ والتعليم أو حتى القيام بدور الشّماس كما كان من مهماتها في نشأة الكنيسة الأولى.

فالخطاب الديني المسيحيّ الّذي هيمن على الكنائس منذ البداية في اسلوب تعامله مع المرأة لم يكن خطاب المسيح، لكنّه استند على ما جاء في التراث الوثنيّ واليهوديّ وعلى آيات بولس الرسول المُستندة على جانب من تعاليم يهودية بحكم خلفيته الاجتماعية والثقافيّة والفكريّة الّتي اتسمت بالذكورية الصريحة. وتبني هكذا نوع من الخطاب كان في صفّ النزعة الأبوية، وضمان لاستمرار السيطرة التامة على الانفراد بالسلطة الدينية إلى يومنا هذا.

الانتصار التاريخي للنزعة الأبوية داخل الكنيسة

جاء في رسالة البطريرك يوحنا اليازجي الرعائية في عام 2013، بطريرك أنطاكية وسائر المشرق للروم الأرثوذكس، حول رعاية المرأة ما يلي: « لدى المرأة مواهب عديدة وخاصّة، علينا تثميرها وتجنيدها، على حدى ومع الرجال في الخدمة الرعائية والاجتماعية. نرى في العهد الجديد أن نساء خدمنَ الكنيسة بطرق مختلفة. في الفترة الرسولية عاشت الجماعة المسيحية بموجب قول بولس: » وليس هناك ذكرٌ وأنثى، لأنّكم جميعاً واحدٌ في المسيح يسوع. وقد تبعت يسوع نساء كثيرات وجُلن معه في تجواله لنشر الكلمة. لا بدَّ لنا من فتح ورشة تفكير لتشجيع انخراط النّساء في العمل التبشيري والخدماتي، واستشارتهنَّ بكلّ ما يخصّ أمور البيعة، وعلينا ابتكار أساليب جديدة لترسيخ خدمتهنّ في النّشاطات التّعليمية والاجتماعية المختلفة».

في قراءة هذه الرسالة الرعوية لغبطة البطريرك اليازجي تتحسّس نهضة فكريّة وثقافيّة واجتماعيّة، وعلامات لتحسّن وضع المرأة ودورها في الكنيسة الأنطاكيّة أقله. إلاّ أنّ هذا التّحسس سرعان ما يتلاشى أمام ذاك اللّقاء المجمعيّ الأرثوذكسيّ الأنطاكيّ لشؤون العائلة والّذي أقيم على أرض وجامعة البلمند في العام 2019. أيّ بعد 6 سنوات من إعلان رسالة البطريرك الرعوية حول رعاية المرأة ودورها في الكنيسة.
ضمّ المجمع آنذاك 60 رجلاً مقابل امرأتين فقط تحت عنوان «العائلة فرح الحياة». وهذا يناقض عملياً كلّ ما جاء في رسالة غبطته حول تشجيع النّساء في الانخراط في العمل التبشيريّ والخدماتيّ. حيث تغيب فيه صورة المرأة عن قصدٍ عن أمور كثيرة تخصّها في حياة العائلة والكنيسة. شكّل هذا الأمر نقطة ضعفٍ كبيرة وحقيقية أمام الكنيسة على اعتبار أنّ المتكلّمين والمحاورين فقط من الأساقفة والمطارنة في الكرسي الأنطاكيّ (رجال غير متزوجين) وبعض من الرجال العلمانيين. وإلى عكس أزمة في نظرة الكثيرين إلى تغليب الأساقفة على كلّ المجتمع الكنسيّ للحديث في مسائل ليسوا ملمّين بها إطلاقاً، وهذا ما بدا واضحاً وجلياً في عدم خبرتهم في مسائل العائلة والتربية الثقافية والنفسيّة والمجتمع وكيفية التعاطي معها بجديّة.

في الوقت الّذي تحيي فيه الكنيسة الأنجليكانية الذكرى الخامسة والثلاثين على ترسيم النّساء قساوسة، القرار الّذي اتخذ في 26/ 2/ 1987 بعد مناقشات دامت 10 سنوات في خطوة إصلاحية تاريخية، يحتفل معهد اللاهوت الأرثوذكسيّ الأنطاكيّ في البلمند بذكرى تأسيسه الخمسين في 2021 ليصل عدد الأستاذات المتفرغات فيه صفراً، وعدد التلميذات المتعلمات صفران.

إنّ المشكلة الأساس في إشكالية دور المرأة في الكنيسة لا تتعلّق بمسألة التّعليم والإرشاد والإدارة، بل بمسألة تولي منصباً في الجسم الإكليريكيّ وإتمام خدم ضمن الطقوس الدينيّة. فالله لا يهتّم بجنس من يقوم بالخدمة الطقسيّة، بل بما فيه من استقامة وكفاءة وصلاح وفضيلة. بالنّسبة لكثيرين اليوم إمراه متعلّمة مثقفة صالحة مستقيمة فكرياً ونفسياً كفوءة وغير متسلطة أفضل بكثير من رجل متسلط جاهل غير كفوء لتولي قيادة وتعليم ورئاسة كنسيّة.

الطرح شائكٌ ولكن ليسَ مستحيلاً. فإيماننا مغيب منذ 2000 عام وهو أنّ الإنسان، ذكراً وأنثى، متساوٍ أمام الله في الصّورة والكرامة والقيمة والفضيلة. فالتمايز في الوظائف يعطي للكنيسة حرية اختيار القيادات وحرية الحركة، وتعطي الخدمة لمن يملك موهبة أو مواهب الخدمة.